جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بأسيوط
المجلة العلمية

الفكر البلاغي عند الثعالبي " دراسة وصفية"

إعداد

د/ بدر بن لافي بن رشيد الجابري
أستاذ البلاغة المساعد
قسم اللغة العربية - كلية العلوم والآداب بمحايل- جامعة الملك خالد

(العدد الثاني والأربعون)
(الإصدار الأول٠٠٠أبريل)
(الجزء الرابع (١٤٤٤هـ /٢٠٢٣م)

الترقيم الدولي للمجلة(ISSN)2536-9083)
رقم الإيداع بدار الكتب المصرية : ٢٠٢٣/٦٢٧١م

الفكر البلاغي عند الثعالبي " دراسة وصفية"

بدر بن لافي بن رشيد الجابري

قسم اللغة العربية، كلية العلوم والآداب، بمحايل، جامعة الملك خالد، المملكة العربية السعودية.

البريد الإلكتروني: Dr.badraljabri@gmail.com

الملخص: يأتي هذا البحث من منظور المسكوت عنه في كتب التراث، فأبو منصور الثعالبي ت٤٢٩هـ متداول عنه في المصنفات العلمية أنه فقيه لغوي، يذكر اسمه دائما بجوار ابن جني و الجوهري وابن فارس وغيرهم، أما كونه بلاغيا فهذا مسكوت عنه إلى حد ما عند الدراسين والباحثين البلاغيين، ومن هنا جاء هذا البحث ليجلي الفكر البلاغي عند الثعالبي، من خلال مؤلفاته، وقد كشف البحث أن مؤلفاته تنقسم إلى قسمين: القسم الأول: مؤلفات جعلها في علم البلاغة فقط؛ لا تتجاوزها إلى غيرها من العلوم، القسم الثاني: مؤلفات في علوم أخرى لكنه ناقش فيها مسائل بلاغية؛ وعلى هذه القسمة جاءت محاور الدراسة، فقد كان المحور الأول في تعريف موجز بالثعالبي، والمحور الثاني في جهوده البلاغية من خلال ما ألَّفه في علم البلاغة، والمحور الثالث كان في جهوده البلاغية من خلال ما أورده من مسائل وفنون بلاغية في كتبه الأخرى. وتكمن أهمية الدراسة وجدواها في أن الثعالبي عاش في الفترة التي سبقت ظهور علم البلاغة بصفةٍ اصطلاحية ؛أي قبل أن يكون علمًا ذا أصول وقواعد ومؤلفات خاصّة به، ما يضمن وضع الثعالبي في مكانه الصحيح في عملية تأريخ علم البلاغة.

كلمات مفتاحية: جهود الثعالبي، ممارسة المصطلح البلاغي، نشأة علم البلاغة، التأثير في السلف من البلاغيين.

The Rhetorical Thought of Al-Thalaabi "Descriptive Study"

Badr bin Lafi bin Rashid Al Jabri
Department of Arabic Language, College of Arts and Sciences, Mahail, King Khalid University, Saudi Arabia.

E-mail *: Dr.badraljabri@gmail.com*

Abstract

This research comes from the perspective of what is unknown in the books of heritage. Abu Mansour al-Tha'alabi, d. 429 AH, is circulated in scientific works about him as a linguist. His name is always mentioned next to Ibn Jinni, al-Jawhari, Ibn Faris, and others. As for his being a rhetorician, this is somewhat unknown to scholars and researchers. Here, this research came to clarify the rhetorical thought of al-Tha'alabi. rhetorical compositions، multi-disciplinary compositions. In view of such divisions، the chapter of the study are as follows: The first chapter explained his rhetorical efforts through his rhetorical compositions. The second chapter examined his rhetorical efforts through the issues، arts and eloquence in other books. The importance of this study is demonstrated in terms that the period of life of Al-Tha'lebi was precedent of the existence of the terminology of Rhetoric، so that is a science which have special principles، rules and compositions، ensuring that Al-Tha'lebi have correctly placed the history of rhetoric or the theoretical rhetoric. Study title: Rhetorical Efforts of Al-Tha'lebi (D. 429 H).

Keywords *:Al-Thalabi's Efforts, The Practice Of Rhetorical Terminology, The Emergence Of The Science Of Rhetoric, And The Influence On The Predecessors Of The Rhetoricians.*

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على حبيبنا وسيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعد

كلّنا يعلم أن العلوم الإسلامية والعربية بالأخصّ ؛لها مراحلٌ في النشأة والتطور، ولها بداياتٌ في الاتجاه نحو الاستقرار والاصطلاح، فالبلاغة – مثلًا – كانت لا تتجاوز في كونها جملةً من الملحوظات، ونتفًا من النقدات، التي كانت تظهر هنا وهناك، ولكن مع مرور الزمن أصبحت تلك الملحوظات علمًا على يد الشيخ عبد القاهر الجرجاني ت٤٧٤هـ ؛ثم علمًا له أصوله وقواعده على يد السكاكي ت٦٢٦هـ، ولذا فإن جهود من كان قبلهما لا تُعدّ ذات بال قياسًا بجهودهما، إلا أن تلك الجهود التي سبقت عبد القاهر و السكاكي؛ تكمن أهميتها في عملية تأريخ البلاغة عبر مسيرتها الطويلة، التي قطعتها؛ لتصبح علمًا من علوم العربية، وذلك التأريخ يجعل تلك الجهود في مرحلةٍ تُعرف بـ(مرحلة ما قبل النشأة والتطور) ؛التي يُذكر فيها بعض الجهود اليسيرة لبعض العلماء الذين كانوا في الغالب نحاةً أو لغويين أو أدباء، وقلتُ يسيرة مقارنة بالجهود التي أرست قواعد هذا العلم، أو زادت في بنائه، ولهم العذر في ذلك ؛ فالمصطلحات في مرحلة قبل الاستقرار لا زالت عائمة ومختلفة من عالم إلى آخر، فهذا معمر بن المثنى ت٢٠٩هـ يُسمّي في كتابه (مجاز القرآن) الكناية والتشبيه مجازًا، وهذا أبو هلال العسكري ت٣٩٥هـ يسمّي الكناية إردافًا في كتابه (الصناعتين)، ولا ضرر في ذلك ما دام كلامهم قبل مرحلة الاستقرار والاصطلاح، وجهودهم تلك تقلّ أهمّيتها بعد الشيخ عبد القاهر الجرجاني ت٤٧٤هـ؛ بل إنها تُعدّ متواضعة إذا ما نظرنا إليها من بعد القرن الخامس، ولكن الملفت للنظر في تلك الجهود أن يكون منها ما هو أقرب إلى مرحلة الاستقرار والاصطلاحية ؛كجهود العالم الأديب جاحظ نيسابور أبي

منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي ت٤٢٩هـ، التي – مع الأسف – لم تُذكر في تاريخ البلاغة قبل مرحلة التكوين والنشأة، كما أنها لم تُذكر في مرحلة التكوين والنشأة والاستقرار، وإنه لأمرٌ غريبٌ في حقِّ مَنْ عالجَ بعض المسائل والفنون البلاغية، وسمَّى بعض المصطلحات بأسمائها التي اُصطُلح عليها فيما بعد، ما دفعني أن أعود إلى مؤلفاته الكثيرة جدّا، وإذا أجدني أمام عالمٍ جليلٍ؛عجبت من ذكره بعض المسائل البلاغية ناضجةً ؛ وكأنها قيلت بعد السكاكي ت٦٢٦هـ، من خلال تسمية بعض المسائل والأبواب البلاغية بما سمَّتها به (البلاغة الاصطلاحية)، وسوقه للشواهد وطريقة إدلائه بها ؛توحي لك وكأنه بلاغيٌّ من بلاغيي القرن السابع أو الثامن، ما دفعني إلى التساؤل عن عدم ذكر الثعالبي وجهوده في البلاغة، سواء في مرحلة التأريخ، أو مرحلة التنظير والاستقرار من قِبل مؤلِّفي كتب تأريخ البلاغة!.

وكي أُبيِّن حجم الإغفال الذي وقع على الثعالبي من جهة مؤرخي البلاغة ومنظري الدرس البلاغي ؛فإني أذكر مثالين من أمثلةٍ عديدة من جهود الثعالبي في علم البلاغة:

المثال الأول: درسه للجناس وتأليفه فيه كتابين –سيرد الحديث عنهما في المحور الأول–، حيث إنه تناول الجناس فيهما تناولاً ناضجًا قياسًا بالعصر الذي عاش فيه، بل إن البلاغيين لم يزيدوا فيه بعده إلا زيادة قليلة لا تخرج عن أنها جزئيات وتفريعات، وإلا في العموم فإن الثعالبي قدَّم درس الجناس بهيئةٍ توحي وكأنه قرأ كتب من بعده البلاغيين.

والمثال الثاني: ما خدمَ به فن الكناية ؛من خلال ما خصَّها به من مصنَّفٍ وقفه كلّه عليها، وهو يعُد من أوائل ما أُلّف فيها، وقد حشد فيه مجموعةً من الشواهد التي يقلّ وجودها في غيره.

وقد أقمت البحث على مقدمة وثلاثة محاور وخاتمة ؛هذا تفصيلها:

أولًا/ المحور الأول: تعريف موجز بالثعالبي.

ثانيًا/ المحور الثاني: جهود الثعالبي في البلاغة من خلال ما خصَّها به من تآليف.

ثالثًا/ المحور الثالث: جهود الثعالبي في البلاغة من خلال ما جاء منها في مؤلفاته الأخرى.

رابعًا/ الخاتمة: وفيها ذكرتُ النتائج التي توصلت إليها الدراسة.

المحور الأول: التعريف بالثعالبي

قال أبو منصور الثعالبي في حقّ الصاحب بن عباد وهو يترجم له: « ليست تحضرني عبارة أرضاها للإفصاح عن علوّ محله في العلم والأدب»[1]؛ وهو ما أقوله هنا في حقّ أبي منصور الثعالبي، ولكن لا بأس بأن نذكر نبذةً موجزة عنه.

تتجلَّى شهرة الثعالبي من خلال مؤلفاته الكثيرة جدّاً، والتي رفدت الحركة الأدبية والثقافية في القرنين الرابع والخامس الهجريين ؛لذا تردَّد اسمه كثيرًا في الأوساط العلمية والأدبية، ونسبت إليه كثير من الأخبار والروايات.

أما اسمه – وفق جميع ما وقفت عليه من مصادر ترجمته – فهو عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري؛ نسبة إلى نيسابور، ويُكنَّى بـ(أبي منصور).

وأما ألقابه فإنها تعدَّدت ؛فلُقِّب بـ(الثعالبي) نسبة إلى خياطة جلود الثعالب وعملها، قيل له ذلك لأنه كان فراء[2]؛إلا أن الدكتور محمود الجادر رفض هذه النسبة، وذكر أن الذي كان يمتهن خياطة جلود الثعالبي هو والده، وأن أبا منصور الثعالبي نُسب إلى مهنة والده ؛مستنداً في ذلك إلى ما ذكره الثعالبي نفسه في كتابه (نظم النثر)[3]، ولُقِّب بـ(جاحظ نيسابور)[4]، كما أنه لُقِّب بـ(جاحظ زمانه)[5].

---

(1) يتيمة الدهر (٣/١٥٤) .

(2) وفيات الأعيان (٣/١٨٠).

(3) الثعالبي ناقداً وأديباً ص ٢٢-٢٣.

(4) دمية القصر (٢/٩٦٦).

(5) الوافي بالوفيات (١٩/١٣٠).

أما ولادته فكانت في سنة ٣٥٠هـ، ووفاته في سنة ٤٢٩هـ[١] ؛ولتحديد سنة ولادته وسنة وفاته أهمية بالغة ؛لأن التأريخ – وهذا البحث منه – يقرأ هذه الأرقام قراءة خاصة تختلف عن أي قراءة، فالمؤرخ عندما يُحدِّد تاريخ ولادة المؤلف وتاريخ وفاته ؛فإنه يعقد المقارنة العلمية بين مؤلفاته ومؤلفات أقرانه، ويستخرج منها ما سبق به وقاله ابتداءً مما حاكى به وقلَّد، ليضعه في مكانه مما هو بصدده من تأريخ علمٍ من العلوم.

وأُحيل هنا فيما يخص حياته ونشأته إلى كتاب الدكتور محمود عبد الله الجادر (الثعالبي ناقداً وأديباً)[٢] ؛فإنه تناول ذلك تناولاً حسناً ؛كشف من خلاله عن حياة الثعالبي وتقلباتها، كما أُحيل إلى مقدمات بعض كتبه المحققة ؛وما كتبه فيها المحققون بين يدي تحقيقاتهم.

أما مؤلفاته فإنه ارتبط وعُرف بواحدٍ منها ؛هو (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر)[٣]، وبقية مؤلفاته لا تقلّ أهمية عنه، وما هذا البحث إلا في جزءٍ من تلك المؤلفات، وما تركه الثعالبي من آثار تُتعب العادِّين، وقد أحصيتُ منها ما يربو على المئة ؛إلا أن خير مَنْ أحصى كتب الثعالبي هما الدكتور محمد جبَّار المعيبد والمحقق البارع هلال ناجي رحمهما الله تعالى في كتابهما (مؤلفات الثعالبي: المطبوعة والمخطوطة والمفقودة والمنسوبة إليه ضِلَّةً)[٤].

---

(١) وفيات الأعيان (٣/١٨٠).

(٢) وهي رسالة علمية نشرها الباحث عن طريق دار الرسالة ببغداد بمساعدة جامعة بغداد عام ١٩٧٦م – ١٣٩٦هـ.

(٣) ينظر: وفيات الأعيان (٣/١٨٠)، سير أعلام النبلاء (١٧/٤٣٨).

(٤) طُبع ونُشر عن طريق مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية عام ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

المحور الثاني

جهود الثعالبي في البلاغة من خلال ما خصَّها به من تآليف

في هذا المحور سَأتحدّث عن مؤلفات الثعالبي التي خصَّ بها مباحث ومسائل دخلت فيما بعد تحت دائرة علم البلاغة من خلال علومها الثلاثة: المعاني والبيان والبديع، فالثعالبي عاش ومات في القرنين الرابع والخامس الهجرين، أي قبيل ولادة البلاغة من رحم كتابي الشيخ عبد القاهر الجرجاني ت٤٧٤هـ، ما يعني أنه عاش في مرحلةٍ مفصليةٍ بين البلاغتين ؛بلاغة الملحوظات والإشارات النقدية، وبلاغة التقعيد والتنظير، وفي هذه الحياة العلمية التي عاشها الثعالبي بين البلاغتين ؛رصدتُ له مؤلفات أقرب ما تكون إلى مرحلة التقعيد والتنظير منها إلى الملحوظات والإشارات، وسأسرد تلك المؤلفات كالتالي:

أولاً/ كتاب (الكناية والتعريض)[1]:

الكتاب خصَّ به الثعالبي الفنَّ الثالث من فنون علم البيان ؛وهو فنّ الكناية، وقد جعله في سبعة أبوابٍ تشتمل على العديد من الفصول في مختلف المعاني، والكتاب لعله من أوائل الكتب التي أُلفت في الكناية، وحينما نستعرض أبواب وفصول الكتاب؛ نجد أن الثعالبي كان مدركًا للكناية إدراكًا تامّاً، وإن هو لم يُعرِّفها أو يُحدِّد مفهومها؛ فالمتأمّل فيه يجد أن كلَّ ما شحن به كتابه من شواهد وأمثلةٍ هي في الكناية والتعريض ولم تخرج عنهما.

---

(1) أخرجه وحقَّقه الدكتور أسامة البحيري في رسالة ماجستير ؛ونشره مطبوعًا عن طريق مكتبة الخانجي في القاهرة سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

وأُلاحظ على هذا الكتاب ما يلي:

١- الثعالبي يدرك معنى الكناية الاصطلاحي وإن لم ينص على تحديد مفهومها ؛بدلالة قوله في مقدمة الكتاب ص٣: (وهذه صفة تغني عن التسمية، ولا تحوج إلى التكنية) فهو يعرف الفرق بين الكناية والتصريح، إذ إنه جعل الكناية مقابلةً للتصريح ؛وهو المفهوم السائد والعام للكناية قبل أن تأخذ مكانها من البلاغة الاصطلاحية ويصبح لها تعريفٌ موجزٌ ؛وعليه فإن الثعالبي كان يعرف الكناية جيدًا ولا يخلط بينها وبين غيرها من الأساليب ؛إذ يقول في الباب الأول ص٢٨ بعد أن أورد شاهدًا من الشواهد التي لا تدخل في الكناية بمعناها الاصطلاحي:«... لا من الكنايات التي هي شرط كتابنا» ما يدلّ على أنه وضع شروطًا للكناية التي بنى كتابه عليها ؛فهو يدرك أن للكناية شروطٌ وضوابط وإن لم يسمها ؛فإنه راعاها في انتخابه وحشده للشواهد، فكلامه السابق قاله حينما تعرَّض للحديث عن الكنايات التي يُكنَّى بها عن عورة الرجل، وذكر أن بعض الأسماء والعبارات لا تتجاوز أن تكون أسماء أخرى لعورة الرجل ؛وهي ليست كناية، ما يُوَضِّحُ أن الثعالبي كان يُفرِّق بين الاشتراك اللفظي والكناية ويدرك الفرق بينهما ؛المتمثِّل في أن اللفظ المشترك يدلّ على المسمّى، أما الكناية فإنها لا تدلّ عليه بل تستلزم ورود معناه.

٢- الثعالبي حينما ألَّف كتابه هذا أَلَّفه وفي ظنِّه أنه أمام بابٍ جديدٍ غير معهود، وعباراته في مقدّمته تشي بذلك ؛إذ يقول: «وما ذلك إلا من سحر البيان في النفوس، وخصائص البلاغة، ونتائج البراعة، ولطائف الصناعة، وأراني لم أُسبق إلي تأليف مثله، وترصيف شبهه، وترصيع عقده» ولعلّه محقٌّ في ذلك فكتابه من أوائل ما أُلِّف في فنّ الكناية إن لم يكن أوَّلها، كما

أن عباراته وألفاظه فيه تُذكِّرنا بكلام مؤسسي العلوم في مصنَّفاتهم ؛كالشيخ عبد القاهر الجرجاني ت٤٧٤هـ في كتابيه دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، فالثعالبي يعي أن للكناية مفهومًا وأمثلةً وشواهد متفرِّقةً في مختلف المظان ؛قد جمعها تحت مظلّةٍ واحدةٍ في كتابه.

٣- الثعالبي لم يخلط بين الكناية وبين التعريض، وإنما قسَّم كتابه إلى سبعة أبوابٍ: خمسة أبوابٍ جعلها للكناية، وبابين للتعريض، وهو لم يذكر هذه القسمة ؛بل المتأمّل في كتابه يلحظ هذا ويجده من خلال الشواهد التى حوتها هذه الأبواب، ما يفيد بأن الثعالبي كان يُفرِّق بينهما ؛كما فعله البلاغيون من بعده.

ثانياً/ كتاب (أجناس التجنيس)[١]:

وهو كتابٌ خصَّ به الثعالبي فنَّ الجناس ؛والذي أصبح بعد ذلك محسّنًا من المحسّنات اللفظية، وأخذ مكانه في علم البديع من البلاغة، وقد قال عنه الثعالبي في مقدّمته ص٢٤: « وقد سنح للعبد كتابٌ خفيف الحجم، بديع الوضع، في المتشابه الذي هو من أسرار البلاغة، ومن أحسن أجناس التجنيس»، وجعل الثعالبي كتابه هذا في ثلاثة أبوابٍ ؛هي:

القسم الأول: في المتشابه الذي يشبه التصحيف، وقد استقرّ هذا النوع من الجناس بعد الثعالبي في (الجناس الناقص) ؛تحديدا في (الجناس المضارع واللاحق).

---

(١) حقَّقه الدكتور محمود عبد الله الجادر عام ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م عن طريق دار عالم الكتب ببيروت.

القسم الثاني: في المتشابه من التجنيس الصحيح ؛وهو ما يكون الاختلاف فيه بين الكلمات في الحركات، وقد استقرّ هذا النوع بعد الثعالبي فيما يسمّى بـ(الجناس المحرَّف) من الجناس التامّ.

القسم الثالث: في المتشابه لفظًا وخطًا، و هو الجناس التامّ.

والثعالبي في كتابه هذا كانت نظرته للجناس نظرةً ناضجةً ؛فقد ذكر في القسم الثاني منه بابًا وسمه بـ(باب من الشعر المتشابه لفظًا لا خطًّا)، وجعل القسم الثالث منه في (المتشابه لفظًا وخطًّا) ؛ما يعني أنه كان يفرِّق بين أنواع الجناس، فالمتشابه لفظًا لا خطًّا هو ما عُرف بعد الثعالبي لدي البلاغيين بـ(الجناس المركب) وهو أن تكون إحدى لفظتي الجناس مركبةً من كلمتين، أو كلمة و بعض كلمة، وهو كما مثَّل له الثعالبي بقول أبي الفتح البستي:

وإن أقَرَّ على رِقٍّ أناملَهُ أقَرَّ بالرِّقِّ كتابُ الأنامِ لَهُ

فالجناس وقع بين (أناملـه) و هي كلمة واحدة، و بين (الأنام لـه) وهي كما ترى مركّبةٌ من كلمتين (الأنام) و (لـه)، ويبدو أن هذا النوع من الجناس قد استهوى الثعالبي ؛ما دفعه إلى أن يؤلِّف كتابًا مستقلًا فيه أسماه (الأنيس في غرر التجنيس) كما سيأتي.

ثالثًا/ كتاب (الأنيس في غرر التجنيس)[1]:

هذا الكتاب جعله الثعالبي في الجناس المركب كما ذكر في مقدمته ص٤٢ حيث يقول: «فإن أجناس التجنيس كثيرةٌ، وأقسامها جمَّة، و لهذا الخادم – يريد نفسه – في تعديد أقسامها، وإيراد أمثالها، والتنبيه على عيونها وعيوبها، وغررها و

(1) نشره المحقق هلال ناجي عام ١٤١٧هـ – ١٩٩٦م عن طريق دار عالم الكتب ببيروت.

عررها ؛كتابٌ لطيفٌ – يقصد كتابه السابق أجناس التجنيس – يجمع مستوفاها، وناقصها، ومُشَاكلها، ومماثلها، ومشتقها، ومركبها، و غير ذلك مما يطول الكتاب بسياقة ذكره، وإعادة شرحه. وقد بنى هذه التحفة آنفًا على التجنيسات المركبة، التي هي أشرف تلك الأجناس».

والثعالبي – كما بينَّا – من أنه ذكر في كتابه (أجناس التجنيس) بابًا جعله في الجناس المتشابه لفظًا لا خطًّا وهو (الجناس المركب) ؛وها هو يعود إلى هذا النوع من الجناس و يخصّه بكتابٍ مستقلٍّ ؛لأنه يراه أشرف أنواع الجناس، وكتابه هذا يختلف عن سابقه ؛فالثعالبي في كتاب (أجناس التجنيس) تحدَّث عن أنواع الجناس ونثرها في ثلاثة أقسامٍ مع التمثيل لكل قسمٍ من هذه الأقسام، أما هنا في (الأنيس في غرر التجنيس) فإنه تحدّث عن نوعٍ واحدٍ من أنواع الجناس ؛هو الجناس المركب، مما حتَّم عليه أن يبنيه على منهجٍ مغايرٍ إذ جعله على المعاني فقسَّمه على أبوابٍ شتى؛ مثلا: باب ما جاء منه – أي الجناس المركب – في الفخر، باب ما يختصّ بمدح الملوك ... وهكذا ؛ فالذي يظهر لي أن الثعالبي بعد ما وضع كتابه (أجناس التجنيس) وقد استوفى فيه جميع أشكال الجناس العامّة؛ عاد وذكر في كتابه هذا بعد أن تكونت لديه مادةٌ لا بأس بها من الجناس المركب؛ و ألَّف هذا الكتاب.

وألاحظ على كتابي الثعالبي في الجناس أن الثعالبي ألَّف كتابيه وهو مدركٌ لطبيعة الجناس، ولأهم أنواعه وأشكاله، فقوله في مقدمة (الانيس في غرب التجنيس)ص٤٢: «كتابٌ لطيفٌ يجمع مستوفاها، وناقصها، ومُشاكلها، ومماثلها، ومشتقها، ومركبها، و غير ذلك»؛ يدل على أنه كان يعي أن الجناس يأتي تامًّا وناقصًا ومركبًا، وأن اللفظتين المتجانستين قد تتشابه حروفهما وحركاتهما، وترتيب حروفهما، وقد تختلف في الحروف أو الحركات أو الترتيب، ناهيك عن الشواهد التي

أثرى بها مبحث التجنيس على نحو ما نراه عند بعض البلاغيين الاصطلاحيين؛ بل قد يزيد.

رابعاً/ كتاب (الإعجاز والإيجاز)[1]:

الكتاب جعله الثعالبي كما وصف في مقدمته ص١٧: «في الكلمات القليلة الألفاظ الكثيرة المعاني، المستوفية أقسام الحسن والإيجاز، الخارج عن حدِّ الإعجاب إلى حدِّ الإعجاز» ؛والإيجاز الذي ذكره و خصّه بكتابه دخل بعد الثعالبي في علم المعاني، واستقرَّ في الباب الثامن منه في باب الإيجاز والإطناب والمساواة، وقد حشد الثعالبي في كتابه هذا مجموعةً كثيرةً من الأمثلة و الشواهد؛ نثرها في عشرة أبوابٍ، جعل الباب الأول فيما وقع من الإيجاز في القرآن، والباب الثاني فيما وقع من الإيجاز في الشواهد النبوية ؛وهما ما يسمّيهما بالإعجاز، وبقية الأبواب جاءت فيما وقع من الإيجاز في كلام الصحابة، والتابعين، والملوك، والوزراء، والادباء، وغيرهم.

والثعالبي كان ملمًّا بمعنى الإيجاز الاصطلاحي الذي استقرّ عليه بعده في كتب البلاغيين، ويظهر ذلك الإلمام من خلال تفسيره لشواهد الباب الأول؛ كقوله ص٢٢: « فمن ذلك قوله- عزّ ذكره-: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ [فصلت: ٣٠]، ﴿ٱسۡتَقَٰمُواْ ﴾ كلمةٌ واحدةٌ تفصح عن الطاعات كلّها في الائتمار والانزجار»، وكقوله ص٢٣: «ومن ذلك قوله – تعالى ذكره: ﴿ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ﴾ [المائدة: ١] فهما كلمتان جمعتا ما عقدَهُ الله على خلقه لنفسه، وتعاقدَهُ الناس فيما بينهم» ؛فالثعالبي يدرك معنى الإيجاز وهو التعبير بألفاظٍ قليلةٍ عن معاني كثيرةٍ ؛من خلال ما حلَّل به شواهد الكتاب تحت ذلك المفهوم في الباب الأول.

---

(١) نشره المحقق إبراهيم صالح عام ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م عن طريق دار البشائر بدمشق.

وكتاب الثعالبي السابق وإن كان كلّه فيما عُرف بعد بـ(إيجاز القصر) إلا أنه لم يخل من بعض المباحث والمسائل البلاغية الأخرى ؛منها:

١- ذكره في الباب الثاني الخاص بالشواهد النبوية أربعة فصولٍ هي:

- فصل في جوامع تشبيهاته وتمثيلاته عليه السلام ؛وأورد فيه جملةً من التشبيهات النبوية.
- وفصل في استعاراته صلى الله عليه وسلم ؛أورد فيه عدداً من استعارات النبي صلى الله عليه وسلم في كلامه الشريف.
- وفصل فيما يُروى من مطابقاته عليه السلام ؛أورد فيه بعض ما جاء من الطباق والمقابلة في كلامه صلى الله عليه وسلم، والثعالبي هنا لم يفرِّق بينهما ؛بل اعتبارهما أمرًا واحدًا.
- وفصل فيما يُروى من جوامع كلامه صلى الله عليه وسلم في التجنيس ؛وأورد جملةً من

الألفاظ التي وقع بينها جناس في كلامه عليه السلام.

٢- قوله في المقدمة ص٢٠: «أما الإعجاز فلكلام الله تعالى، وكلام الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم، وأما الإيجاز فلأعيان البلاغة، وأعلام البراعة، وسحرة الشِّعر، من أصحاب وسائط القلائد، وأفراد القصائد» ؛فيه إشارةٌ لما عُرف بعد الثعالبي بـ(طرفي البلاغة) والذي عبَّر عنه السكاكي ت٦٢٦هـ بقوله: «ولها أعني البلاغة طرفان: أعلى وأسفل، متباينان تباينًا لا يتراءى له ناراهما، وبينهما مراتب، تكاد تفوت الحصر ؛متفاوتة، فمن الأسفل تبتدئ البلاغة ؛وهو القدر الذي إذا نقص منه شيءٌ التحقَ ذلك الكلام بما شبهناه به في صدر الكتاب من أصوات الحيوانات، ثم تأخذ في التزايد متصاعدةً إلى أن تبلغ حدَّ الإعجاز ؛وهو

الطرف الأعلى وما يقرب منه»[1] ؛ فإن فحوى القولين أن الكلام ينقسم إلى قسمين: قسم معجز ؛وهو كلام الله تعالى، وقسم غير معجز ؛وهو مراتب متفاوتة، منه ما يقرب من حدِّ الإعجاز وهو ليس منه، وهم يعنون به كلام البلغاء، ومنه ما يقع في أدنى درجات الإجادة.

خامساً/ كتاب (الاقتباس من القران الكريم)[2]:

الكتاب كما هو واضح من عنوانه ؛جعله الثعالبي في الاقتباس وهو من المباحث البلاغية التي استقرّت بعد الثعالبي و لحقت بعلم البديع في فصل السرقات الشعريه، والثعالبي في كتابه هذا ذكر الاقتباس بمفهومه العامّ ؛وهو أن يأخذ الأديب نصًّا بعينه، ويدرجه في كلامه، وخصَّص النصَّ المأخوذ بأن يكون من القرآن الكريم ؛ما جعله من المؤلفات الفريدة في باب الاقتباس من القرآن الكريم.

وقد قسَّم الثعالبي كتابه هذا إلي خمسةٍ وعشرين بابًا ؛يورد في كلِّ بابٍ جملةً من الفصول، يذكر فيها لطائف من الأخبار والأشعار التي أُقتبس فيها شيءٌ من القرآن الكريم، والكتاب على ما فيه من كثرةٍ للشواهد التي ترفد درس الاقتباس في البلاغة ؛إلا أنه يُعدّ ذخيرة لكلِّ متكلِّمٍ من أن يأخذ من اقتباساته ويدرجها في كلامه، فما جاء فيه من شواهد ونماذج ؛تناسب سياقات كلامية كثيرة.

سادساً/ كتاب (نثر النظم وحلّ العقد)[3]:

الكتاب كما هو ظاهر من تسميته؛ جاء كلُّه في نثر الأشعار وحلِّها ؛وهو من الفنون البلاغية التي استقرَّت في فصل السرقات الشعرية الذي لحق بعلم البديع في البلاغة الاصطلاحية، والكتاب يُعدُّ مادةً ثريةً للتمثيل والاستشهاد على هذه الفن.

---

(1) مفتاح العلوم، ص٤١٥-٤١٦.

(2) نشره في جزأين كلٌّ من الدكتورة إبتسام مرهون الصفار والدكتور مجاهد مصطفى بهجت عام ٢٠٠٣م عن طريق مجله الذخائر في القاهرة.

(3) طبع الكتاب في دمشق عن طريق مطبعة معارف الولاية الجليلة سنة ١٣٠٠هـ.

المحور الثالث

جهود الثعالبي في البلاغة من خلال ما جاء منها في مؤلفاته الأخرى

في المحور الثاني تحدَّثتُ عن جهود الثعالبي البلاغية من خلال ما ألَّفه فيها من كتب، أما في هذا المحور فسوف أستعرض جهوده من خلال ممارسته البلاغية في كتبه الأخرى التي لم يخص بها علم البلاغة، فقد رصدتُ له نشاطًا منقطع النظير في إدراجه لمباحث وفنون البلاغة فيما يؤلِّفه من كتب، وغالب هذه الممارسات تصبُّ في الجهود التي قام بها العلماء في سبيل تكوين علمٍ اصطلاحيٍّ جديدٍ هو (البلاغة) ؛والتي كان لآخر هذه الجهود شرف نشأة هذا العلم، وهي جهود الشيخ عبد القاهر الجرجاني ت٤٧٤هـ، ويمكن ملاحظة جهود الثعالبي في التالي:

أولاً/ كتاب (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر):

وهو أشهر كتبه ؛إذ عُرف به في كثير من المصنفات الأدبية، ومؤلفات السير والتراجم، فكان كثير ما يُقال (صاحب اليتيمة)، وهو من الكتب المتداولة؛ المطبوعة طبعات مختلفة، بتحقيقات مختلفة.

والكتاب كما يُفهم من اسمه ؛جعله الثعالبي في تراجم وسير كثير من الأدباء والعلماء، وقد شحنها باللطائف والنكات البلاغية، التي تنم عن خلفيته البلاغية، ومهارته الأدبية، فعلى سبيل المثال لا الحصر، ما قاله عن المتنبي حينما تصدّى للحديث عنه، فإن حديثه عنه جاء فيه كثير من المسائل البلاغية ؛منها:

- ذكره في: (١٢٧/١) أن المتنبي وقع فيما يُعرف بـ(قبح المطالع) ؛إذ قال: «ولأبي الطيب ابتداءات ليست لعمري من أحرار الكلام وغرره، بل هي – كما نعاها عليه العائبون – مستشنعة لا يرفع السمع حجابه، ولا يفتح القلب لها

بابه، كقوله:

هذي بَرَزْتِ لنا فهجْتِ رَسيساً ثم انصرفتِ وما شفيتِ نَسيسَا

فإنه لم يرض بحذف علامة النداء من (هذي) وهو غير جائز عند النحويين، حتى ذكر الرسيس والنسيس ؛فأخذ بطرفي الثقل والبرد».

- وفي (١/١٤٠) ذكر أنه لم يوفّق في إيراد الاستعارة على وجهها ؛إذ قال: « ومنها إبعاد الاستعارة والخروج بها عن حدّها ؛كقوله:

مسرَّة في قلوب الطيب مَفْرِقُهَا وحسرة في قلوب البيض واليَلَبِ

وقوله:

تجمَّعَتْ في فؤادهم هِمَمٌ ملء فؤاد الزمانِ إحداها

وقوله:

لم يحك نائلَكَ السحاب، وإنما حُمَّتْ به فصبيبها الرُّحَضَاء

وقوله:

إلا يَشِب فلقد شابتْ له كَبدٌ شَيْباً إذا خَضَبَتْهُ سَلْوةٌ نَصَلا

وقوله:

وقد ذقت حَلْواء البنينَ على الصِّبَا فلا تَحْسَبني قلتُ ما قلتُ عن جهلِ

فجعل للطِّيب والبيض واليَلَب قلوباً، وللسحاب حُمَّى، وللزمان فؤاداً، وللكبد شيباً، وهذه استعاراتٌ لم تجر على شبهٍ قريب ولا بعيد، وإنما تصحّ الاستعارة وتحسن على وجه من الوجوه المناسبة، وطرق من الشبه والمقاربة ؛ قال الصاحب: وما زلنا نتعجب من قول أبي تمام:

لا تَسْقِني ماءَ المَلام فإنني صبٌّ قد استعذبت ماء بُكائي

فخفَّ علينا بحلواء البنين».

- وفي (١٤٢/١) ذكر أنه وقع في (الإفراط في المبالغة)، وفي (١٥٠/١) ذكر أنه وقع في (استكراه التخلص) ؛هذا كلّه في مساوئ المتنبي، أما المحاسن ؛فإنه وصفه: في (١٥٦/١) بأنه (حسن التشبيه بغير أداة التشبيه) ؛وهو ما عُرف فيما بعد بـ(التشبيه البليغ)، كما أنه وصفه في (١٥٧/١) بـ(الإبداع في سائر التشبيهات والتمثيلات)، وفي (١٦٩/١) بـ(حسن التقسيم) ؛وكلّ ذلك ساقه ومثَّلَ له بالعديد من الشواهد من شعر المتنبي، فجاء ما كتبه مثالاً يُحتذى في توظيف البلاغة ومحاكمة الأدب بها.

وكتابه يعجّ بالكثير من المصطلحات البلاغية وإيقاعها على الأشعار، وهو ما يُعدّ ضمن البلاغة التطبيقية.

ثانياً/ كتاب (التوفيق للتلفيق)[1]:

وهو كتابٌ أدبيٌّ حوى أبوابًا متعددة لفَّق الثعالبي بين محتوياتها، ووفَّق بين موضوعاتها، وكانت العلاقة التي تربط مضامين مواد الكتاب في أغلب أبوابه علاقةً بلاغية ؛فعلى سبيل المثال جعل الثعالبي الباب الأول في التشبيهات التي يجمعها موضوعٌ واحدٌ، وجعل الباب الثاني في التشبيهات المتجانسة التي يليق بعضها ببعض، وحشد فيهما عددًا كبيرًا من الشواهد ؛كما أن الكتاب اشتمل على العديد من المسائل البلاغية:

- كقوله ص ٩٣ وهو ما يدخل تحت فنّ الكناية: «وكتب بعضهم: انصرفت البارحةَ بقلبٍ مهموم، وجسمٍ محموم، فما الظَّنُّ بعلّة الحال قارَنَتْها علّةُ الجسد، وداء

---

(١) نشره المحقق هلال ناجي والدكتور زهير زاهد سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م عن طريق عالم الكتب ببيروت.

الذئب حالفَهُ داءُ الأسدِ. داء الذئب كنايةٌ عن الجوع، وداءُ الأسد كنايةٌ عن الحُمَّى».

- وكقوله ص ٧٧ وهو مما يدخل تحت فنّ التشبيه: «لما أشرفَ قتيبةُ بن مسلم على سمرقند استحسنها جدّاً، فقال لأصحابه: شبِّهوها، فلم يأتوا بشيء ؛وقالوا: الأميرُ أحسن تشبيهًا لها، فقال: كأنها السماء في الخضرة، وكأن قصورها النجوم اللامعة، وكأن أنهارها المجرة».
- وكقوله ص ٧٧-٧٨ وهو مما يدخل تحت فنّ الاستعارة: «وسُئل الحسن بن وهب يومًا عن مبيته فقال: شربت البارحة على السماء وعقد الثريا، ونطاق الجوزاء، فلما انتبه الصبح نمت، فلم أستيقظ إلا بعد أن لبستُ قميص الصبح».
- وكقوله ص ١٠٨-١٠٩ وهو مما يدخل تحت فني الاستعارة وحلّ النظم: « ولم أسمع في استعارة أحوال المولود، والتلفيق بينهما في المدح أحسنَ من قول الجرجاني القاضي:

مُسْتَرْضَعٌ بثديِّ المجد مفترشٌ حِجْرَ المكارمِ مفطومٌ عن البخلِ

وقد حلَّهُ مَنْ قال في نقله إلى الذَّمِّ: أُرْضِعَ بلبان اللؤم، وفُطِمَ عن ثديّ الخير، ونشأ في عرصَةِ الخُبْثِ).

ثالثاً/ كتاب (خاص الخاص)[1]:

وهو كتابٌ جعله الثعالبي في ثمانية أبوابٍ ؛جمع في كلّ بابٍ منها جملةً من الطرائف واللطائف الأدبية، وجاء فيه ذكرٌ لبعض الفنون والمسائل البلاغية ؛منها:

([1]) نشره مأمون بن محيي الدين الجنان سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م عن طريق دار الكتب العلمية ببيروت.

١- ذكره في ص ١٤٢ الإيجاز بمعناه الاصطلاحي وذلك في معرض مدحه لزهير بن أبي سلمى ؛إذ يقول: «يقال إنه – أي زهير – أجمع الشعراء للكثير من المعاني في القليل من الألفاظ».

٢- قوله في ص ١٤٥ عندما أورد بيتًا للشَّنفرى الأزدي وقد احتوى على جناس بين بعض ألفاظه: «وما أقلّ التجنيس في شعر الجاهلية، ومن ذلك القليل قوله –أي الشَّنفرى–:

ورحنا كأن البيت حجرٌ فوقنا بريحانة ريحت عشاء فظلت».

٣- حديثه في ص ١٠٠ عن التشبيه وعن اختلاف الناس في عقده كلٌّ بحسب ثقافته ؛إذ قال: «حدثنا أبو محمد المعلى بن أحمد الكردي – وكان بديعًا لم يُر مثله في الأفراد فكيف في الأكراد؟!، وصار بفضل أدبه ومروءته وكرمه على حداثة سنِّه وغضاضةِ عُوده من وجوه نيسابور ، فاحتضر واخترم في عنفوان شبابه ؛قال : اجتمع في محلّةِ ناكل – وهي محلّة الأكراد فيما بين الشامات ورستاق بشت – صابغٌ، وكرديٌّ، ومعلمٌ، ومتفقّهٌ يدَّعي العشق، وديلميٌّ صاحبُ تشبيبٍ ؛فأصحروا عشيةً يتماشون ويتحادثون، وطلع البدرُ لتمّه ، فاستحسنوه ؛وقالوا : لا بدَّ لنا من تشبيهه، فليشبِّهه كلُّ واحدٍ منا بما يحضره، فبدأ الصابغُ وقال : (كأنَّهُ سبيكةٌ خرجت من البوتقة)، وقال الكرديُّ : (كأنَّهُ جبنٌ خرج من القالب)، وقال المتفقّهُ العاشق : (كأنَّه وجهُ المعشوق طلع على العاشق)، وقال المعلمُ: (كأنَّه رغيفٌ حواريٌّ خُبِزَ في دار غنىً واسع الرّحل)، وقال الديلميُّ :(كأنَّه ترسُ ذهبٍ يُحمل بين يدي ملك)...) ؛وقوله هذا أخذه السكاكي ت٦٢٦هـ فيما بعد؛ إذ قال في المفتاح:« يُحكى أن صاحبَ سلاحِ ملكٍ، وصوَّاغًا، وصاحبَ بقرٍ، ومعلمَ صبيةٍ ؛اتَّفق أن انتظمهم سلكُ طريقٍ، وقد كان حمل كلًّا منهم مركبُ الجد، فما أورثهم انتقاب المحجة بالإظلام، سوى الإغراء أن يلطموا بأيدي

الرواقص حدودها، وما استطاع الظلام أن لا يطؤوا المسافة وقد نشر جناحه، وأن يلقوا عصاهم وقد مدَّ لهم رواقه ؛فقابلهم بعبوسٍ افترَّ عن مزيدِ تخبُّطهم وخوف ضلالهم، فبينا هم في وحشة الظلماء، وقد بلغ السيل الزبى، ومقاساة محنتي التخبط وخوف الضلال، وقد جاوز الحزام الطبيين ؛آنسهم البدرُ الطالع بوجهه الكريم، وأضاءت لهم أنواره كلَّ مظلمٍ بهيمٍ ؛فلم يتمالكوا أن أقبل عليه كلٌّ منهم ينظم ثناءه، ويمدح سناه وثناءه، ويخدمه بأكرم نتائج خاطره، وإذا شبَّهه شبَّهه بأفضل ما في خزانةِ صوره ؛فما يشبِّهه السلاحي إلا بالتِّرس المذهَّب يُرفع عند الملك، ولا يشبِّهه الصائغُ إلا بالسبيكة من الإبريز تفترُّ عن وجهها البوتقة، ولا يشبِّهه البقَّارُ إلا بالجبن الأبيض يخرج من قالبه طريًّا، ولا يشبِّهه المعلمُ إلا برغيفٍ أحمر يصل إليه من بيتٍ ذي مروءة»[1].

٤- ذكره ص ١٧٨ لـ(للاعتراض) الذي أصبح فيما بعد نوعاً من (الإطناب) ؛إذ قال:(عوف بن محلّم الشيباني : أمير شعره قوله من قصيدة في عبد الله بن طاهر:

يا ابن الذي دَانَ له المشرقانِ وألبسَ العـــدل به المغـــربانِ

إنَّ الثَّمـــانينَ وبُـلِّـــغْـتَهـــا قد أحوجت سمعي إلى ترجمانِ

قوله (وبُلِّغْتَها) حشوٌ أحسن من معنى البيت، ولقَّبه الصاحبُ بـ(حشو اللوزينج)، وله نظائر جمعتها في بعض كتب).

٥- ذكره ص ٢٢٦ لـ(التضمين) وقد صار فيما بعد الثعالبي شكلًا من أشكال الاقتباس في علم البلاغة ؛ إذ قال: « أبو طالب عبد السلام بن الحسين

([1]) مفتاح العلوم، ص٢٥٠.

المأموني : من أحاسن شعره قوله من قصيدةٍ في تضمين كلّ قصة يوسف عليه السلام :

وعصـــبة بـــات فيهـــا الغـــيظ متقدًا إذ شدت لي فوق أعناق العدى رتبا

فكنت يوسف والأسباط هم وأب الأ ســـباط أنت ودعـــــــواهم دمًا كذبا).

٦- ذكره ص ٢٢٧ لـ(التعريض) وهو شكل من أشكال الكناية: إذ قال «...وقوله – لم أسمع في التعريض بالالتجاء أحسن منه – :

قد برح الحب بمشتاقكَ فأوله أحسن أخلاقك

لا تجفـــه وارع لـــــه حقَّه فإنَّه آخـــــــر عشاقك».

رابعاً/ كتاب (سحر البلاغة وسر البراعة)[1]:

وهو كتاب اختياراتٍ نثرية؛ قال عنه الثعالبي في مقدمته:«ولم أُخْلِ كلمةً من كلماته التي هي وسائط الآداب، وصياقل الألباب، وما تشتهي أنفس الأدباء، وتلذّ أعين الكُتَّاب، من لفظٍ فصيح، أو معنىً بديع، أو تجنيسٍ أنيس، أو تشبيهٍ بلا تشبيه، أو تمثيلٍ بلا مثيلٍ أو عديل، أو استعارةٍ من الحسن مستعارة، أو طباقٍ ذي رونقٍ باق» ؛والمتأمّل في الكتاب يجد فيه كلَّ ما ذكره الثعالبي هنا من: تشبيه واستعارة وطباق وجناس، وكلام الثعالبي السابق وتعداده لبعض الفنون البلاغية ؛يدلّ على فهمه لما عُرف فيما بعد بعلم البلاغة بفنونه الثلاثة: المعاني والبيان والبديع.

---

(١) حقَّقه الدكتور درويش جويدي سنة ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م ونشره عن طريق المكتبة العصرية ببيروت.

خامساً/ كتاب (التمثيل والمحاضرة)[1]:

وهو من كتب الثعالبي الأدبية المشهورة، أورد فيه بعض المسائل البلاغية ؛كذكره في الفصل الأول الإيجاز والتشبيه والاستعارة والجناس والطباق الذي وقع في كلام النبي صلى الله عليه وسلم ؛موردًا الأمثلة والشواهد الكثيرة على ذلك، ما يدل على أن الثعالبي كان مدركًا لبعض الفنون والأبواب البلاغية قبل استقرار البلاغة واتخاذها شكلها المعروف، ويُعدّ هذا الإدراك وذلك الصنيع من الجهود التي أسهمت في تكوين البلاغة (البلاغة الاصطلاحية).

كما أنه ذكر في ص ١٥٧-١٥٨ كلامًا حاولَ فيه أن يقف على معنى أو مفهومٍ للبلاغة ؛وهو قوله:« البليغ من يحوك الكلام على حسب الأماني، ويخيط الألفاظ على قُدود المعاني.

أبو الفتح البستي:

إذا أقسمَ الأبطالُ يوماً بسيفهم وعدّوه ممّا يكسب المجد والكرم

كفى قـــلم الكتّاب مجداً ورفعةً مدى الدّهــر أنّ الله أقسم بالقلم

سهل بن هارون: البيان ترجمان العقول، وروض القلوب.

غيره: الكلام الحسن من مصائد القلوب.

أبو عبيد الله وزير المهدي: البلاغة ما فهمته العامة، ورضيته الخاصة.

غيره: أبلغ الكلام ما سابق معناه لفظه.

البلاغة ما أشار إليه البحتري حيث قال:

([1]) نشره الدكتور عبد الفتاح الحلو سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م عن طريق الدار العربية للكتاب.

وركبْنَ اللّفظ القريب فأد ركْنَ به غايةَ المرامِ البعيدِ

خيرُ الكلام ما قلَّ وجلّ، ولم يطل فيُمَلّ.

خير الكلام ما كان لفظه فحلاً، ومعناه بكراً.

ابن المعتز: البلاغة أن تبلغ المعنى ولم تُطل سفر الكلام. خير الكلام ما أسفر عن الحاجة. البلاغة ما صعب على التعاطي، وسهل على الفطنة».

الخاتمـــــة

أظهرت لنا الدراسة ما لأبي منصور الثعالبي من مكانة بين العلماء الذين بفضل جهودهم ؛استقرَّ علم البلاغة، وأخذ مكانه من بين علوم العربية، والثعالبي بجهوده ومؤلفاته التي خصَّ بها علم البلاغة يمثِّل حلقةً مفقودة في تاريخ البلاغة، فكلنا يعلم حينما يأتي الحديث عن تاريخ البلاغة واستعراض مسيرتها ؛يُبدأ فيه – في الأغلب – بالإشارة إلى أبي عبيدة معمر بن المثنى ت٢٠٩هـ، والجاحظ ت٢٥٥هـ، وابن قتيبة ت٢٧٦هـ، وابن المعتز ت٢٩٦هـ، وقدامة بن جعفر ت٣٣٧هـ، وأبي هلالٍ العسكري ت٣٩٥هـ، وابن رشيق ت٤٦٣هـ ؛ وصولًا إلى الشيخ عبد القاهر الجرجاني ت٤٧٤هـ، وانتهاءً بالسكاكي ت٦٢٦هـ، ومن بعده الخطيب القزويني ت٧٣٩هـ، ولا نجد في هذا السَّرد ذكرًا لأبي منصور الثعالبي ت٤٢٩هـ ؛على الرغم من كثرة مشاركاته في علم البلاغة، حتى إنه يُعدّ أكثر هؤلاء من حيث التأليف، ولا شك أن تصحيح التاريخ أو بالأصحّ ما تناقله الناس من هذا التاريخ ؛يكون أمرًا ذا صعوبة بالغة، إلا أن المصاعب تذوب أما الدليل والحجة، وهو ما كشفته لنا هذه الدراسة، التي انصبت على جهود الثعالبي البلاغية من خلال ما ثبت له من مؤلفات، وبالنظر إلى هذه المؤلفات نجدها وفق هدف الدراسة تنقسم إلى مؤلفات بلاغية ومؤلفات غير بلاغية، وقلت بلاغية أي ما تكون فيما استقر بعد في مباحث علم البلاغة، ثم إن هذه المؤلفات التي في غير علم البلاغة – خاصّة المؤلفات الأدبية – يذكر الثعالبي فيها أبوابًا أو فنونًا بلاغية، ما جعل المتأمّل في تلك المؤلفات ؛يجد نفسه أمام عالِمٍ ذي باعٍ كبير في العلوم الأدبية والبلاغية، والعجب يزداد عندما نرى تجاهل القدماء والمحدثين لجهود هذا الرجل ؛والذي لم أر له تفسيرًا سوى أن رواة التواريخ يأخذون من بعضهم ويكررون ما قاله الأوائل، فعندما خلت القوائم الأولى من مصنفات تأريخ البلاغة من اسم

الثعالبي، تناقل ذلك الرواة وكلّ من ألف أو تكلّم في تاريخ هذا العلم، ولكن كلّ أمرٍ يهون إصلاحه في المادة التاريخية ؛إذ كان ثمّة دليل عليه، خاصّة إذ كان الدليل قديمًا ؛أظهرته ما قدّمته لنا المطابع من مؤلفات كانت في غياهب الرفوف، وهو العذر الذي وجدته للمحدثين وهم الذين تتبعوا تاريخ البلاغة، فلعله لم يصل إليهم ما ألّفه الثعالبي في البلاغة، فكما هو معلومٌ أن علماء عصر النهضة الحديثة انبروا واندفعوا إلى مهمة تأريخ كآفة العلوم، فكان يحدث منهم – دون قصد – إغفال بعض الجهود ؛وهو ما تحاول مثل هذه الدراسة إصلاحه.

وعليه فإن الدراسة خلصت إلى أن الثعالبي من خلال ما ألَّف في البلاغة ؛يُعدّ من البلاغيين بل من كبارهم، فإنني لم أجد مقياسًا يُصنِّف البلاغي من غيره ؛سوى التأليف في علم البلاغة، وإن كان قبل استقرار علم البلاغة شمل بعض اللغويين والنحاة والأدباء والنقّاد، فإنه لا بأس بأن ندخل الثعالبي إلى البلاغة من باب طائفة الأدباء، فحياته كانت قبيل استقرار وظهور علم البلاغة، أو قبل أن يتَّسم بالاصطلاحية التي اكتسبها على يد السكاكي ت٦٢٦هـ.

المصـــادر والمراجـــع

- أجناس التجنيس، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت٤٢٩هـ، تحقيق: الدكتور محمود عبد الله الجادر، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- الإعجاز والإيجاز، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت٤٢٩هـ، تحقيق: إبراهيم صالح، ط٢، دمشق، دار البشائر، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- الاقتباس من القرآن الكريم، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت٤٢٩هـ، تحقيق: الدكتورة إبتسام مرهون الصفار ؛ والدكتور مجاهد مصطفى بهجت ط١، القاهرة، الذخائر - الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣م.
- الأنيس في غرر التجنيس، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت٤٢٩هـ، تقديم وتحقيق: هلال ناجي، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- التمثيل والمحاضرة، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت٤٢٩هـ، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ط٢، الدار العربية للكتاب، ١٩٨٣م.
- التوفيق للتلفيق، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت٤٢٩هـ، تحقيق: هلال ناجي ؛ الدكتور زهير زاهد، ط١، بيروت، عالم الكتب، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- الكناية والتعريض، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت٤٢٩هـ،تحقيق: أسامة البحيري، ط١، القاهرة، مكتبة الخانجي، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي المتوفى ٧٦٤هـ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى، ط١، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- خاص الخاص، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت٤٢٩هـ، شرحه وعلق عليه: مأمون بن محيي الدين الجنان، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

- سحر البلاغة وسر البراعة، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت٤٢٩هـ، تحقيق الدكتور درويش جويدي، ط١، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

- سير أعلام النبلاء، الإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى ٧٤٨ هـ ، تحقيق : شعيب الارناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، ط١، بيروت، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

- مؤلفات الثعالبي المطبوعة والمخطوطة والمفقودة والمنسوبة إليه ضلةً، الدكتور محمد جبار المعيبد ؛ هلال بن ناجي، ط١، الرياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م.

- مفتاح العلوم، يوسف بن أبي بكر بن محمد بن علي السكاكي، ضبطه وكتب هوامشه وعلق عليه: نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧م.

- نثر النظم وحل العقد، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت٤٢٩هـ، ط١، دمشق، مطبعة معارف الولاية الجليلة، ١٣٠٠هـ.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان المتوفى ٦٨١هـ، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، ١٩٧٢م.

- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ت٤٢٩هـ، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط١، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.